2018051 5_0002a_ar

لجنة أهالي المخطوفين والمفقودين في لبنان

علم وخبر 29/أد

التاريخ الشفهي للحرب في لبنان وذاكرتها
بيت بيروت 2018/5/15

بدأتُ أحتفظ بالجرائد منذ صبيحة اليوم التالي لاختطاف عدنان. الهدف كان إفساح المجال أمامه للمتابعة والاطلاع على ما فاته من أحداث وتحاليل يومية، خلال فترة تغيّبه القسري المفترض أن لا تطول على ذمّة الرجلين المسلّحين اللذين اقتاداه من البيت.

وعدُ الدقائق الخمس بعودته بعد إجراء تحقيق بسيط سقط مئات المرات في اليوم الأول (288 مرة). وسقط آلاف المرات في اليومين الثاني والثالث والرابع والـ...!
الأيام تمر، عدنان لم يعد!! الأشهرتنقضي، عدنان لم يعد!! الجرائد تتكدسّ، ترتفع، ثم تتمددّ أفقياً إلى أن ملأت مساحة غرفة النوم.

صرتُ محاصرةً بغياب عدنان جسدياً، ومحاصرةً بحضوره عبر كومات الجرائد.
أمام الحصارين كان لا بد من خرقٍ واحدٍ على الأقّل، فحضر المقصُ. وفعل فعلَهُ كـ"مقصّ الرقيبِ" لكن دون شيطنتِه.
بدايةً، كان يقتطعُ من الجريدة أو المجلة كلّ ما حسبتُه هاماً لتوصيفِ الحالةِ السائدةِ وفَهمِ الأفقِ السياسي للمرحلة. لاحقاً، وبعد أن تحوّلَ البحثُ عن عدنان إلى البحثِ عن مئاتٍ فآلافٍ مثله، تركّزَ نشاط المقص على المواد المتعلقة بأخبار الخطف، خصوصاً تلك التي غطّت التحركاتِ الميدانيةِ التي بدأنا نقوم بها كلجنة أهالي، وما حاولنا فرضه عبرها من حالة اعتراضية على استمرار الحرب وعمليات الخطف.

مع مرور السنوات، تجمّعتْ لدّي موّادٌ يمكنها أن تختصرَ تاريخَ الحربِ في لبنان وما بعد الحرب من منظورِ المفقودين وأهاليهم.
هذه المواد كنتُ مضطرةً إلى حمايتِها كما أحمي طفلّي. تنقّلتْ معنا مع كل تهجير فرضته الحرب، وفرضته تباعاً قوانين الإيجار.
قد نطلّ من خلال هذه المواد، إضافةً إلى أسماءِ الأشخاص المفقودين وبعض المعلومات الشخصيّة عنهم وعن ظروف وأماكن اختطافهم، على المسار التاريخيّ للقضيّة إبتداءً من عمليّات الخطف، ولادة لجنة الأهالي، تحركاتِها منذ نشأتها سنة 1982 حتى اليوم: المواجهات خلال الحرب مع المليشيّات ومع أركان السلطة وأجهزتِها. التحركات والمواجهات مع الدولة بعد إتفاق الطائف وصدور قانون العفو العام، مروراً بتطور مضمون التحركات من مطلبية إلى وطنية. هنا، تجدر الإشارة إلى أننا، كلجنة أهالي، لم نتعاملْ مع هذه المواد كمعلوماتٍ حصريّة خاصّة بنا. وإنما كانت متاحةً لكلّ مَن يسأل أو مَن يُحضّر للقيام بعملٍ ما حول الموضوع.

المختلِفُ اليوم هو أننا قررّنا وضعَ هذه المعلومات، الأرشيف إذا صحَّ التعبير، بمتناولِ كلِ من يرغب بالاطلاع عليه دون حاجةٍ للرجوع إلينا. بمعنى آخر قررنا نقلَ هذا الأرشيف من طابَعِه الخاص إلى العام لأنّ موادَه ذاتُ طابع عام.
المختلفُ إذاً هو علاقتُنا مع المواطنين والمؤسسات في لبنان. فبمشاركتِنا لهم/كم هذه الداتا، نقولُ لهم/كم أنها ملكُكُم، هذا تاريخُ بلدِكم. بمعنى آخر هذا تاريخُكُم، إن كان لديكم مفقودٌ أم لا.
(هون بدي كمّل حكي بالتاريخ)

20180515_00026_2

كما حصل في التشيلي أو في الأرجنتين، أو الجزائر أو يوغسلافيا سابقاً أو سوريا اليوم ...حصل في لبنان، فقد ارتكَبتْ الميليشياتُ وبعضُ الأجهزةِ الرسمية، خلال الحرب، جرائمَ بحق أعدادٍ هائلةٍ من الأفراد: إعتقال تعسفي، خطف، تعذيب وقتل و من ثمّ إلقاء آلاف الجثث في مقابر جماعيّة في أماكن مختلفة براً وبحراً.
ما حصل في البلدان الآنف ذكرها بعد الحرب، بعد أن عادت السلطات واستلمت الحكم، وقامت بإخفاء معالم جرائمها بشتىّ الطرق، هو مطابقٌ لما قامتْ وتقومُ به السلطات اللبنانية.
الفارق، أننّا قادرون على فهمِ الحالاتِ التيّ حصلتْ في تلك البلدان كجزءٍ من تاريخها، إلّا أننّا عاجزون أن نراها كذلك في لبنان.
إن الوحشيّةَ المقزّزةَ التيّ نراها في فعلِ ميليشياتِ بينوشيه بنثرِ عظامِ الأشخاص الذين قاموا بتصفيتِهم في صحراء تشيلي كي لا يعثرَ عليهم أهاليهم وأحباؤهم .. نحن في لبنان، عاجزون عن رؤية هذه الوحشيّة حين يعطي طبيبٌ شرعيٌ إفادةً بأن العظام التي تمّ العثورُ عليها في مقبرة كذا هي لحيوانات وليست لبشر، أو حين تُطحنُ العظامُ تحت محدلة زفت، أو حين يقول المدعيّ العام أن العظام التي تم العثور عليها في...عمرها ٣٥٠ سنة، أو حين تقوم شركات المقاولات بجرفها إلى البحر أو البناء فوقها...
هذا تاريخُنا نحن، ليس كأهالي مفقودين، وإنمّا هو تاريخُ لبنانَ المعاصر. هذه ليست أزمةً عرَضية، كالنفايات. أعتقدُ، أن كارثةَ إلقاءِ النفايات في البحر راسخةٌ في عقولِ اللبنانيين أكثرَ من وحشيّةِ إلقاءِ أجسادِ أحبائِنا في البحر، أو سحلِهم بعجلات جرافات إعادة الإعمار ليُعادَ طمرُهُم بباطونِ الأبنيـــــةِ والطرقات والأوتوستّرادات تحت راية "السلام".. "هلّي عالريح يا رايتنا العلّية..."!
نحن نعتقدُ أنه يمكن للسلطاتِ أن تستمّرَ بطمرِ الجثث، إلّا أنها لن تستطيعَ طمرَ الحقيقة.
نحن ندركُ أنه كلمّا زادتْ كميّةُ الباطون، كلمّا فهمنا حقيقةَ حجمِ الجريمة القابعةِ تحتها.
إذا كان بإمكان السلطات أن تقومَ بطمرِ الجثث، إلّا أنها ستبقى عاجزةً عن طمرِ الأرشيف.
إذا كان لا أجساد للمفقودين، فالأرشيف يحقّقُ وجودَهم، يؤكّدُه. الجسدُ الغائبُ للمفقود يقابله جسم الأرشيف.
هذا الأرشيف، نسعى إلى تسليمِه لأصحابه: إليكم أنتم أبناء هذا "الوطن"، كأفرادٍ وكمؤسسات. أنتم أصحاب هذه الأرض. هذه الأرض ملكُ الناس، ملكُكم بكلّ ما تحويه من ظاهرٍ ومن باطن، من جميلٍ وقبيح.
قضيّة المفقودين، لم تعد قضيّةً خاصةً بأهاليهم، إنما أصبحتْ إرث الجميع. كم من صاحبِ أرضٍ عثر بعد الحرب، وهو يعتني بأرضه على جثة أو بقايا هياكل عظميّة فيها؟ هذه الوقائعُ موجودةٌ في الأرشيف، في بلدة تول، في بنت جبيل، في العباسية، في خلّةِ الزيتي في تلالِ عيتا الفخار، في صيدا وفي الزهراني، في طرابلس، في بيروت، في الشبانيّة، في مجدل عنجر، في حالات وغيرها من المناطق...

إذاً نحن اليوم أمام أرشيف قانوني وسياسيّ، هو أيضاً تأريخيّ. هو أيضاً إرثٌ وطنيّ. هو في المستقبل تاريخٌ لمرحلةٍ قاتمةٍ وطويلةٍ عاشَها لبنان، لا ينبغي إغفالُها ولا طمسُها ولا تجميلُها. من العارِ أن يتخلى شعبٌ عن حقبةٍ من تاريخِهِ مهما كانتْ سوداءَ، قاسيةً وبشعة.

نحن نعيّ مدى أهميّةِ وجودِ هذا الأرشيف. هذا الأرشيف يمكنه أن يكونَ مادّةً جامدة، إلّا أنه يتحرّك، يحيا من خلال إستخدامه. يصبح مادةً حيويةً وهامّة حين يستخدمُه الباحثون، المؤرخون، رجالُ القانون، الكتّاب، الإعلاميون، السينمائيون، المعنيون بإعداد مناهج مادة التاريخ في المدارس، هواةُ النوع، أحفادُ المفقودين، وربما أحفادُ أحفادِهم بعد ٥٠ عاماً.

20180515-00020-2

من زاويةٍ أخرى، لقد كانت المعركةُ ثنائيّةً بيننا وبين الدولةِ اللبنانية منذ ٣٦ عاماً حتى تاريخِه. اليوم، نحن نغيّرُ في طبيعةِ هذه المعركة. فكلُّ من يطلّع على هذا الأرشيف، يستخدمُه، يحيّيه، يصبحُ حليفاً لنا، للقضية، فتبطلُ ثنائيّةُ المعركةِ بين طرفين.

نحن نتوقّعُ أن تلجأ الدولةُ مستقبلاً، مستخدمةً أدواتِها وحججِها المعهودة، إلى منعِ عرضِ فيلمٍ أو نشرِ بحثٍ أو إبداءِ رأيٍّ أو القيام بنشاط، كما تقوم اليوم برقابة تامة على مضمون كتاب التاريخ المدرسيّ. هذا هو تماماً حقُّ المعرفة الذي تريدُ الدولةُ حجبَه عن مواطنيها.
نحن ناضلنا وما زلنا من أجل هذا الحق. من أجل معرفةِ حقيقةِ ما جرى لأحبائِنا. اليوم صار النضالُ أوسع من أجل معرفة حقيقةٍ عامةٍ/حقائق هي حقٌّ لكلّ فردٍ منكم.

ختاماً أقول، أن المواجهةَ بين الخاصِ والعام طرحتْ ضرورةَ مأسسةِ الأرشيف وتحويلِه من مادةٍ ورقيةٍ إلى مادةٍ رقمية.
لقد بدأ العملُ الجدّيُ على الأرشيف صيف العام 2016 وتمّ الانتقالُ من المبادرةِ الفردية بتشكّلِ فريقِ عملٍ تطوّعي متواضع. أنجزَ هذا الفريق، مشكوراً، قسماً مهماً من العمل (ترقيم، ترميم، مسح ضوئي). وبعد استكمال هذه المرحلة من العمل، سوف ينتقلُ المشروعُ إلى مستوى جديدٍ أصعب من الناحية العلمية والكفاءات المطلوب توفرها للبرمجة والقراءة وبناء البيانات الشرحية "الميتاداتا".
اليوم، من هنا، من بيت بيروت للذاكرة، أطلقُ النداء إلى جميع المواطنين/ات المهتمين/ات للانضمام إلى فريق العمل لتدعيمِه وتمتينه وتنويعه، إن لجهةِ العدد وإن لجهة الاختصاص والخبرة.
تعالوا نعمل معاً من أجل فك ارتباط هذه الحقبة من تاريخنا عن حراك أهالي المفقودين كي تأخذ مكانها الطبيعي لتصبح مادة معرفية علمية بمتناول الأخصائيين وغير الأخصائيين.